العنوان التاسع

المبادرة

يُقدر الإسلام المبادرات، أيما تقدير ويجعل منها منارات، وحسبنا أنها كانت في موقف من المواقف، سبباً في دخول الجنة، بلا حساب، أو عذاب.

حدَّث النبي ﷺ أصحابه، يوماً، فقال لهم: يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً، بلا حساب، أو عذاب، فبادر أحد الصحابة من فوره، وهو عكاشه، فقال يا رسول الله، أدعُ الله أن أكون منهم، فقال له أنت منهم. وقام صحابي آخر، بعده مباشرة، وقال يا رسول الله، أدعُ الله، أن أكون منهم، فقال له النبي ﷺ، سبقك بها عكاشة[1].

تصرُّف نبوي كريم، يتضمن التنبيه إلى أهمية المبادرة، وإلى السرعة في استثمار المواقف، لقد فاز عكاشة بالجنة، بكل سهولة، لأنه تحلّى بروح المبادرة، فحاز فضل السبق، بلا منازع.

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث رقم ٦٥٤١

حفظ لنا التاريخُ اسم عكاشة، صاحب هذه المبادرة، وطوى التاريخُ نفسه، اسم الرجل الآخر، لأن المبادرات، تُخلِّد ذكر أصحابها فقط ولو بعد حين وإن لم يخطر ببالهم هذا قط.

جعل النبي ﷺ من المبادرات الخيِّرات، ينبوعاً من الأجر، لا ينضب، وباباً من الخير، لا يغلق، حين قال: (من سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً) (٢).

تعظيم الإسلام، لمنزلة المبادرة، يلقى قبولاً لدى النفس البشرية، فإن الإنسان بطبعه يحب أن يُسمع له، وأن يُشار إليه بالبنان، وأن يُذكر، فيُشكر، والمبادرة من حيث هي باب لكل هذه المرغوبات للنفس البشرية.

لقد أحسنَّ الشيطان بالأثر الإيجابي للمبادرات الخيِّرات، فقعد في طريقها، وصار من أعظم أمانيه، كما قال ايدموند بورك: " أن يجلس الأخيار دون أن يبادروا إلى عمل شيء " وهذا قول حسن، ذلك أن الحركة ولود، والسكون عاقر، وتحركُ الأخيارِ يأتي بالخير، ويحاصر الشر.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب الحث على الصدقة، حديث رقم ٢٣٥١

يحسن بالإنسان أن يستحضر أهمية المبادرات، من حيث استغلالها، وطرحها في وقتها، فإنه إذا هبت رياح المبادرة، ثم سكنت دونما استغلال لها، نظر هذا الإنسان خلفه، كما قال حكيم آخر، فتجتاحه الحسرات، حين يرى بعض المبادرات، وقد ضاعت منه، إمَّا أنه سبق إليها، وإمَّا أن وقتها فات.

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاقبة سكونا

هذه الحياة العجلى التي نعيشها، نشارك في صناعة جزء من أحداثها، والباقي يصنعه الآخرون، وهم جادون، فعلى الرواد صنَّاع الجودة في مؤسساتنا، أن يبادروا إلى صناعة الفرص، بطرح المبادرات، ليحوزوا فضل السبق، لهم ولأمتهم.

لقد أعجبتني مقولة إن الأحداث العظيمة، يصنعها اقتناص الفرص، والنجاح ليس لمن هو أكثر جاهزية، وأعظم إمكانات، وإنما هو للأسرع، والأكثر استغلالاً للفرص، وأحسب أن استغلال الفرص لا يكون إلاَّ بالمبادرة إليها.

إن تعذرت صناعة المبادرة، فلا أقل من المبادرة إلى استثمارها، إذا حدثت، يقول وزير خارجية أمريكي أسبق، ليس من معالم السياسة الأمريكية، أن تبادر دائماً إلى صناعة الأحداث، لكنها تملك القدرة على المبادرة، قبل غيرها إلى استثمارها، أحسن استثمار لصالحها، حين تحدث، والمشاهد شاهد.

يزدحم تاريخنا الزاهر بمبادرات كثيرة أسهمت في صناعة التاريخ، وتغيير معالم الجغرافيا، ففي معركة القادسية، استعان الفرس بالفيلة، التي لم يكن للعرب، ولا لخيولهم عهد بها من قبل.

كانت خيول المسلمين تجفل من الفيلة، وتأبى التقدم نحوها، فكاد المسلمون أن يخسروا المعركة في أيامها الأولى فأسقط في أيديهم. بادر أحد جنود المسلمين فصنع فيلاً من طين، وبدأ يدرب فرسه على الاقتراب منه، والجرأة عليه، حتى أنس به، ولم يعد يجفل منه.

لما أطمأن هذا الجندي، المبادر إلى نجاح خطته، انطلق بفرسه نحو الفيل، وضرب خرطومه بسيفه فاضطرب الفيل، واندفع داخل صفوف الفرس، فقتل منهم العشرات، ومزَّق صفوفهم، وحُسمت المعركة لصالح المسلمين[٣].

الإنسان بطبعه، يحب أن يكون مبادراً، لعلمه بالآثار الإيجابية التي تتحقق له ولمحيطه، ولكن تحول بينه وبين طرح المبادرات عقبات، للشيطان في بعضها نصيب، ومدخل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ سورة الحج (الآية: ٥٢).

تظهر هذه العقبات في العنوان التالي وهو الموؤدات.

(٣) الإمام الطبري، *انظر تاريخ الطبري*، ج٤، ص ١٦،